الإسلام والطفل

" دراسات إسلامية "

الدكتور: علي عبد المنعم عبد الحميد
استاذ بقسم الشريعة والدراسات الإسلامية
بجامعة الكويت

قال الله تعالى : « لله ملك السموات والارض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور ، ، او يزوجهم ذكرانا و اناثا ويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير (١) » وقال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : « تناكحوا تناسلوا تكثروا فاني مباه بكم الامم يوم القيامة» (٢) فالاولاد (ذكورا كانوا او اناثا) هم اشهى ثمرات الحياة ، يدرك ذلك من وهبه الله اياهم ، ومن ابتلاه سبحانه بالحرمان منهم ، عليهم عمارة الدنيا ، وبهم تسود الامم وتصول ، قال الله سبحانه : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) (٣) . وقال

---

(١) الآيتان : ٤٩ ، ٥٠ من سورة الشورى.
(٢) رواه قطني.
(٣) الآية ٤٦ من سورة الكهف.

صلى الله عليه وسلم : (الولد ثمرة القلب) (٤) وحب الولد كامن في جبلة الانسان كمون النار في الحجر الصلد ، علت درجة ذلك الانسان أو هبطت ويستوي في ذلك صفوة الله من خلقه وهم الانبياء والمرسلون ، ومن عداهم من البشر أيا كانوا ، فالقرآن الكريم يحدث عن أبي الانبياء ابراهيم عليه السلام انه لما هاجر من موطنه الاصلي الذي ولد ونشأ فيه (٥) ودعا قومه الى التوحيد فعصوه طلب الى ربه سبحانه ان يرزقه أولادا يعينونه ، ويؤنسون غربته ، عوضا عن قومه وعشيرته ، قال الله سبحانه وتعالى : « فأرادوا به كيدا فجعلناهم الاسفلين . وقال اني ذاهب الى ربي سيهدين . رب هب لي من الصالحين . فبشرناه بغلام حليم ». (٦) واستجاب الله جلت قدرته له ورزقه « اسماعيل » عليه السلام ، فهو أول ولد بشر به ابراهيم ، وهو اسن من اسحاق باتفاق علماء المسلمين وأهل الكتاب ، ونصت التوراة على ان اسماعيل ولد لابراهيم من زوجته « هاجر » المصرية وكانت سنه ستا وثمانين سنة كاملة ، وولد له « اسحاق » « من زوجته ساره » وعمره تسعة وتسعون عاما .... ولما راى زكريا مريم ابنة عمران وقد رزقها الله رزقا حسنا ، وجعلها قرة عين والديها وشاهد صلاحها وتقواها « فتقبلها ربها بقبول حسن وانبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا كلما دخل عليها زكر يا المحراب وجد عندها رزقا قال يامر يم انى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » . (٧)

في هذا المكان الذي كفل فيه زكريا مريم ، دعا ربه أن يهبه ذرية طيبة ، فالاولاد النجباء الصالحون تشتاقهم النفوس وتهفو اليهم الافئدة : قال الله تعالى : « هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء . فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين » . (٨) وفي سورة مريم يرد خبر زكريا بصورة أخرى ، وانه دعا ربه في السر بعيدا عن الناس ، ليخلص من لائمتهم على طلب انولد زمن الشيخوخة ، وقد توسل الى الله سبحانه بضعفه وعجزه وطعنه في السن ، قال الله

---

(٤) جزء من حديث رواه الامام أحمد.

(٥) كان ابراهيم فتى من أهل «فدان آرام» بالعراق كما ورد بالتوراة وكان قومه أهل أوثان وكان أبوه تجارا يصنع الاصنام و يبيعها لمن يعبد ونهاكما نص على ذلك في انجيل «برنابا».

(٦) الآيات : من ٩٩ الى ١٠١ من سورة الصافات.

(٧) الآية : ٣٧ من سورة آل عمران.

(٨) الآيتان ٢٨،٢٩ من سورة : آل عمران.

تعالى : « ... ذكر رحمة ربك عبده زكريا . اذ نادى ربه نداء خفيا . قال رب اني وهن العظم مني واشتعل الراس شيبا ولم اكن بدعائك رب شقيا . وانى خفت الموالى من ورائي وكانت امراتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا . يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا » (٩) فقد خاف زكريا من الذين سيخلفونه في اقامة الدين ان لا يؤدوا حق الله تعالى كاملا ، او ينكصوا عن تبليغ الهدايه الى سائر قومهم ، فقد روى المؤرخون (المسعودي وغيره) انهم كانوا من شرار بني اسرائيل ، فطلب زكريا ولدا من صلبه يقتدي به ويسير على نهجه ويسلك طريقه المستقيم ، ويرث منصبه الديني ، كما روى ذلك « الكلبي » في كتابه « الاصنام » حيث قال : « كان بنو ماثان رؤوس بني اسرائيل وملوكهم ، وكان زكريا رئيس الاحبار يومئذ » ... ومن قبل ذلك تاريخيا نصح « نوح » عليه السلام قومه ان يطيعوه ويستجيبوا لربهم جل وعلا حتى يغفر لهم ذنوبهم ويدر عليهم الخيرات ويهبهم من البنين من سيكونون سبب سعادتهم وهنائهم ، فالتناسل لا ينمو ولا يزيد الا في عصور الرخاء والامن وسيادة العدل ، والامثلة من واقعنا اليوم كثيرة لا تحصى ، قال الله تعالي مسجلا موقف « نوح » هذا : « ... فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا » . (١٠) فالاولاد قرة عين ، وسعادة نفس ، وانس فؤاد ، بهم تناط الامال ، وتزدهر الحياة ، يقول الله تبارك وتعالى حاكيا عن امراة فرعون ــ تلك المراة المؤمنة الصالحة ــ حين التقط آل فرعون ، الطفل موسى ، من اليم وحاولوا قتله كما كان فرعون يفعل بأبناء اليهود في زمنه « وقالت امراة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى ان ينفعنا او نتخذه ولدا » (١١) ثم يرد الله تبارك وتعالى موسى الى امه ويقول سبحانه : « فرددناه الى امه كي تقر عينها ولا تحزن ... » (١٢) كما جاء في سورة الفرقان ان عباد الرحمن كانوا يدعون ربهم قائلين : « ربنا هب لنا من ازواجنا وذرياتنا قرة اعين واجعلنا للمتقين اماما » (١٣) ويمن الله سبحانه على بني اسرائيل كثرة الاولاد فيقول جل وعلا : « ... وامددناكم بأموال وبنين وجعلناكم اكثر نفيرا » . ويذكر القرآن فضل الله تعالى على عباده في قول الله تعالى :

---

(٩) الآيات من ٢ الى ٦ من سورة مريم.
(١٠) الآيات : ١٠، ١١، ١٢، من سورة نوح.
(١١) الآية ٩ من سورة القصص.
(١٢) الآية ٧٤ من سورة الفرقان.
(١٣) اية من سورة الإسراء.

« يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ان الله كان عليكم رقيبا » (١٤) . ويقول عز اسمه : « هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما اثقلت دعوا الله ربها لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين » (١٥) . ويقول جل وعلا : « والله جعل لكم من انفسكم ازواجا وجعل لكم من ازواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات ... » (١٦) ويتحدث القرآن الكريم عن الرسل الذين سبقوا سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم فيقول : « ونقد أرسلنا من قبلك رسلا وجعلنا لهم ازواجا وذرية ... » (١٧) ويقول : « وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قدير»(١٨). و يذكر اعتزاز الوليد بن المغيرة بابنائه بعد ماله ــ ابان مبعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيقول : « ذرني ومن خلقت وحيدا . وجعلت له مالا ممدودا . وبنين شهودا . ومهدت له تمهيدا . ثم يطمع أن أزيد ... » (١٩) وروي ان النبي صلى الله عليه وسلم قد دمعت عيناه يوم مات ابنه ابراهيم وقال : « انعين تدمع والقلب يخشع ولا يقول اللسان الا حقا » كما حدث منه ذلك صلى الله عليه وسلم يوم وفاة ابن لاحدى بناته رضي الله عنهن جميعا » (٢٠) .

من أجل كل ما مر ، وبناء عليه ، لم يكن عجيبا ان يولى الاسلام الاطفال اهتماما كبيرا ، وهو الذي قعد القواعد الاصيلة ، ووضع الاسس الصلبة الثابتة المستمرة الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، لكل ما يكفل عمارة الدنيا بصدق وجد واخلاص وتقوى وايمان ، ومن ينفذ ذلك سوى الانسان خليفة الله في ارضه ، « واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض خليفة ... » (٢١) . فيصل الصالحون الى جنات النعيم « في مقعد صدق عند مليك مقتدر » . (٢٢) فالاطفال هم أمل الغد الباسم ،

---

(١٤) الآية ١ من سورة النساء.
(١٥) الآية ١٨٩ من صورة الأعراف .
(١٦) الآية ٧٢ من سورة النحل.
(١٧) الآية ٣٨ من سورة الرعد.
(١٨) الآية ٥٤ من سورة الفرقان.
(١٩) الآيات من ١١ ـ ١٥ من سورة المدثر.
(٢٠) من حديث طو يل ورد في صحيح البخارى.
(٢١) من الآية رقم (٣٠) من سورة البقرة.
(٢٢) الآية ٥٥ من سورة البقرة.

المادية المحدودةالاجل عندالله تعالى : « ومايدريك لعل الساعة قريب » (٢٩) كما هو الشأن في معظم ما يكتبه علماء الافرنج في هذا الصدد ، فقد قصروا اكبر همهم وصرفوا عنايتهم في البحث في القوى المادية وطرق الانتفاع بهـا هنا في هذه الحياة وتخفيف اوصابها وآلامها وتحصيل اسباب السعادة فيها ، وقطعوا النظر جملة عما يؤهل النفوس لنقاء ربها في الدار الآخرة ، والحظوة فيها بقربه ورضوانه ، وهو المقصد الاسمى من هذه الحياة الدنيا ، بل هم قد فتنوا كثيرا من الناس عن الدين الذي هو سبيل الفوز في تلك الدار بتسريب الشبه الى عقائده ، والقاء جراثيم الشكوك في أصوله ومذاهبه حتى اضلوهم عن سواء السبيل » ... الى أن قال رحمه الله : « فليأخذ مطالعو هـذا الكتاب بأحسن ما يقراون منه لدنياهم ولا ينسوا تربية ارواحهم وتزكيتها .. » (٣٠) ولا يكون ذلك الا بالايمان العميق الصادق بالبعث ... ، قال الله تعالى : « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما علمتم وذلك على الله يسير » . (٣١)

(وبعـد) فسأحاول ـ مستعينا بالله سبحانه ـ أن اشرح في هذا البحث مدى عناية الاسلام بالطفل في ثلاثة أطوار : ١ ـ الطور الاول : يتعلق بما يجب على والديه حياله قبل ان يوجد على مسرح الحياة ٢ ـ الطـور الثاني : يبدأ مع حمله جنينا في رحم امه الى أن يولد . ٣ ـ الطور الثالث : من لدن ولادته الى ان يبلغ اشده ويصير رجلا قويا عاملا في حقل الحيـاة مع اترابه ولداته او مستقلا بأموره واحواله .

١ ـ الطـور الاول :

لقد وجه الاسلام عنايته الى الاولاد ورعايته لهم قبل ان يوجدوا فأوجب لهم حقوقا على الاباء لا مناص لهم من تحقيقها وان لا فسيسألون عن تقصيرهم امام من لا تخفى عليه خافية ان اهملوا تنفيذها ، ومن اهم تلك الحقوق هو اختيار الام ذات الخلق والدين والعفة والمروءة ، قال رسول الله صـلى الله عليه وسلم : « حق الولد على والده أن يحسن موضعه (اي امه) وأن يحسن اسمه وأدبه » (٣٢) كما قال عليه افضل الصلاة وازكـى السـلام :

---

(٢٩) الايه ١٧ من سورة الشورى .
(٣٠) ص ٤٩٩ الطبعة الثالثة من الكتاب المشار اليه .
(٣١) الايه ٧ من سوره التغابن.
(٣٢) الحديث رواه..الحاكم في مسنده.

« تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » (٣٣) وقال أب يمن على أولاده :

واول احساني اليكم تخـــيرى لما جدة الاعراق باد عفافها

ونظرة الاسلام الى ثراء المراة او الرجل نظرة عابرة ، فلا يعير الاسلام المال اهتماما كبيرا ، فالمال غاد ورائح ، واما انثبات والدوام فللقيم والاخلاق ولهذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تنكح المراة لاربع ، لمالها، ولجمالها ، ولدينها ، ولحسبها فاظفر بذات الدين تربت يداك » (٣٤) ويقول صلى الله عليه وسلم : « من تزوج امراة لعزها لم يزده الله الا ذلا ، ومن تزوجها لمالها لم يزده الله الا فقرا ، ومن تزوجها لحسبها لم يزده الله الا دناءة، ومن تزوج امراة لم يرد بها الا أن يغض بصره ، ويحصن فرجه ، او يصـــل رحمه ، بارك الله له فيها ، وبارك لها فيه » (٣٥) ودائما يفضل الاســـلام المراة انودود الولود على غيرها ، فقد روى النسائي والحاكم وابو داود : « ان رجلا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا رسول الله ، اني احببت امراة ذات حسب ومنصب ومال ، الا انها لا تلد ، فقـــال عليه الصلاة والسلام : « تزوجوا الودود الولود فاني مكاثر بكم الامم » وقال : « ان الدنيا متاع وخير متاعها المراة الصالحة » (٣٦) وقال صلى الله عليـــه وسلم : « خير نساء ركبن الابل صلح(٣٧) نساء قريش أحناه على ولـــد في صغره وارعاه (٣٨) على زوج في ذات يده « وفي حق الزوج يقول صلى عليه وسلم : « اذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه الا تفعلوا تكن فتنة في الارض وفساد كبير » . (٣٩) ومر رجل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : « ما تقولون في هذا » ؟ قالوا : حري اذا خطب ان ينكح ، واذا شفع ان يشفع ، واذا قال ان يستمع له ... ثم سكت ... فمر رجل آخر من فقراء المسلمين ، فقال : « ما تقولون في هذا » ؟ قالوا : حرى ان خطب ان لا ينكح ، وان شفع ان لا يشفع ، وان قال ان لا يستمع له ، فقال صلى الله عليه وسلم:

---

(٣٣) الحديث رواه.. ابو داود في سننه وحسنه.

(٣٤) متفق عليه

(٣٥) رواه ابن حبان.

(٣٦) رواه النسائي ومسلم.

(٣٧) جمع صالحة بضم الصاد المهملة وتشديد اللام المفتوحة.

(٣٨ ، ٣٩) ذكر باعتباره اللفظ والجنس أو الشخص وله في كلام الرسول الله عليه وسلم نظائر. والقياس، احناهن وأرعاهن يراجع في «فتح البارى بشرح صحيح البخارى» حـ١١ ص طبع الحلبي بالقاهرة. والحديث متفق عليه.

« هذا خير من ملء الارض من هذا » (٤٠) فاذا عزم الرجل ان يقترن بامراة فقد جرت سنة الله في خلقه ان يبحث الرجل عمن يختارها شريكة حياته ، ثم يتقدم لوليها خاطبا لها ، وهنا يتدخل الاسلام فيحث كلا من الطرفين على ان يتعرف كل شيء عن الطرف الآخر ، فواجب على الرجل ان يتعرف على اسرة من يريدها زوجة له ، ويدرس احوالها الخلقية وصفاتها الاجتماعية وما عليه افرادها من دين ومروءة وعفة وخلق فاضل ، فالمنبت الطيب يخرج نباته باذن ربه ، قال صلى الله عليه وسلم : « اياكم وخضراء الدمن » قالوا : يا رسول الله وما خضراء الدمن ؟ قال:«المراة الحسناء في المنبت السوء»(٤١) فاذا اطمأن الى انه قد وجد ضالته تقدم بقلب مطمئن وخطى ثابتة والله يوفقه ويرعاه ، ويجب على ولي المخطوبة أن يعلم كل شيء يهمه ان يعرفه عن خاطب ابنته او اخته من اخلاقه ودينه وعفته ومروءته واصدقائه ، فاذا راق له أمره واطمأن الى حسن سلوكه وما عليه احواله ورجا في مصاهرته الخير ، عرض الامر على فتاته ، ومهد لها سبيل لقائه في حضرته فيشاهد كلا منهما الآخر راى العين وسمع الاذن ، فان ذلك مما يؤهلهما لعشرة طيبة هنية سعيدة ، فقد روى عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه انه خطب امراه من الانصار فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « انظر اليها فانه احرى ان يؤدم بينكما » (٤٢) وقال عليه افضل الصلاة وازكى السلام : « اذا خطب احدكم المراة فان استطاع ان ينظر الى ما يدعوه الى نكاحها فليفعل » ،(٤٣) وتستشار المخطوبة فيمن يتقدم اليها ولا بد ــ شرعا ــ من اعلانها رايها صراحة او تلميحا ، قال صلى الله عليه وسلم : « لا تنكح الأيم حتى تستأمر ولا تنكح البكر حتى تستأذن : « قالوا : « يا رسول الله وكيف اذنها ؟! قال : « ان تسكت » (٤٤) وقد عقد الامام البخاري في صحيحه بابا جعل عنوانه : (لا ينكح الاب وغيره البكر والثيب الا برضاها) (٤٥) واورد احاديث كثيرة تحت هذا العنوان ، وروى أن عائشة رضي الله عنها قالت : يا رسول الله ان البكر لتستحي : قال (رضاها صمتها) ولدى شرح الاحاديث الخاصة بهذا الموضوع ، قال ابن حجر العسقلاني : قال ابن المنذر : يستحب اعلام البكر

---

(٤٠) رواه الترمذى.
(٤١) رواه الدار قطنى والبيهقى .
(٤٢) رواه مسلم واحمد .
(٤٣) رواه ابو داود والشافعي وصححه والحاكم.
(٤٤) رواه البخارى.
(٤٥) ص ٩٦ ج طبع الحبي بالقاهرة «فتح البارى بشرح صحيح البخاري».

ان سكوتها اذن ، وقال ابن شعبان (وهو من التابعين) يقال لها ثلاثا : ان رضيت فاسكتي وان كرهت فانطقي ، وقال بعضهم : يطال المقام عندها (اي عند البكر) لئلا تخجل فيمنعها ذلك من المسارعة ، واختلفوا في الاب يزوج البكر البالغ بغير اذنها ، فقال الاوزاعي والنووي والحنفية ووافقهم ابو ثور : يشترط استئذانها فلو عقد عليها بغير اذنها لم يصح ، وقال آخرون: يجوز للاب ان يزوجها ولو كانت بالغا بغير استئذانها ، وهو قول ابن ابي ليلى ومالك والليث والشافعي واحمد اسحاق (ولكل من الطرفين وجهته وادلته واجتهاده) .

واما المهر فلا حدود له ، ومن اطلع على ما جرى عليه العمل في عهد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف ذلك جيدا ، فالمسألة في المهر راجعة الى تقدير الطرفين قل أو كثر ولم يحدده الشارع تركا للباب على مصراعيه ليتصرف الناس كل حسب استعداده وقدرته المالية والعرف الاجتماعي ، ولنورد حادثتين وقعتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم توضحان ذلك بما لا يقبل الجدل :

١ــ الحادثة الأولى: روى البخاري في صحصيحه (٤٦) قال: حدثنا قتيبة: حدثنا يعقوب عن ابي حازم عن سهل بن سعد ان امرأة جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يارسول الله، جئت لاهب لك نفسي! فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصعد النظر اليها وصوبه، ثم طأطأ رأسه، فلما رأت المرأة انه لم يقض فيها شيئا جلست، فقام رجل من أصحابه، وقال: أي رسول الله، ان لم تكن لك بها حاجة فزوجنيها ، فقال : هل عندك من شيء ؟ فقال : لا ، والله يا رسول الله ! قال : اذهب الى اهلك فانظر هل تجد شيئا ، فذهب ثم رجع فقال : لا ، والله يا رسول الله ما وجدت شيئا ، قال : انظر ولو خاتما من حديد !! ، فذهب ثم رجع فقال : لا ، والله يا رسول الله ، ولا خاتما من حديد، ولكن هذا ازاري . قال سهل : ما له رداء ! فلها نصفه ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما تصنع بازارك !؟ ان لبسته لم يكن عليها منه شيء ، وان لبسته لم يكن عليك منه شيء ، فجلس الرجل حتى طال مجلسه، ثم قام ، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم موليا ، فأمر به فدعى ، فلما جاء قال : ماذا معك من القرآن ؟! قال : معي سورة كذا ، وسورة كذا ، وسورة كذا ، عددها ، قال اتقرؤهن عن ظهر قلبك ؟! قال : نعم ، قال :

---

(٤٦) حـ١١ ص ٨٦.

اذهب ، فقد ملكتكها بما معك من القرآن » (٤٧) .

٢ ــ **الحادثة الثانية** : عن انس ان عبد الرحمن بن عوف تزوج امراة على نواة ، فراى النبي صلى الله عليه وسلم بشاشة العرس فساله ، فقال : اني تزوجت امراة على نواة ، وعن قتادة عن انس ان عبد الرحمن بن عوف تزوج امراة على وزن نواة من ذهب (٤٨) .

ولو خطبت المراةالثيب رجلالنفسهافلا مانع شرعا فقد روىالبخاريعنثابت البناني قال : كنت عند انس وعنده ابنة له . قال انس : جاءت امراة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرض عليه نفسها ، قالت : يا رسول الله ، الك بي حاجة ؟! فقالت بنت انس : ما اقل حياءها ، واسواتاه ، واسواتاه ، قال : هي خير منك ، رغبت في النبي صلى الله عليه وسلم فعرضت نفسها عليه » (٤٩) .

كما يصح ان يعرض الرجل ابنته على من يراه صالحا لها ، فقد روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : تأيمت حفصة من خنيس بن حذافة الانصاري ، وكان من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى بالمدينة ، فقال عمر رضي الله عنه : عرضت حفصة على عثمان فقال : سأنظر في امري ، فلبثت ليالي ، ثم لقيني ، فقال : قد بدا لي ان لا اتزوج يومي هذا ، فلقيت ابا بكر الصديق رضي الله عنه ، فقلت : ان شئت زوجتك حفصة ، فصمت ابو بكر ، وكنت اوجد عليه مني على عثمان ، فلبثت ليالي ، ثم خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانكحتها اياه ، فلقيني ابو بكر ، فقال : لعلك وجدت علي حين عرضت علي حفصة فلم ارجع اليك شيئا ، قلت: نعم ، قال ابو بكر : انه لم يمنعني ان ارجع اليك فيما عرضت علي الا اني كنت علمت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها ، فلم اكن لافشي سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو تركها قبلتها) .

لقد عرضنا لشيء من امور الزواج وما يتصل به ، لان انسجام الاسرة له نتيجة حتمية هي صلاح الولد ، وتحديد سلوكه في مستقبله ، وتجاوب افراد الاسرة المبنى على الثقة والمحبة والتعاون الصادق البناء عامل قوي في تهيئة الاولاد لمواجهة الحياة في ثبات وامن واطمئنان ورباطة جأش بفضل توجيه الابوين المتفاهمين المتحابين الطيبي العشرة ، واما اذا ساءت احوال الوالدين وتصدع جدار الفتهما واضطرب حبل ودهما فقل على الاسرة

---

(٤٧)،(٤٨)،(٤٩) فتح البادري بشرح صحيح البخاري حـ١١ ص ٣٨ ومابعدها.

وعلى مستقبل اولادهما العفاء ، وويل للاولاد الذين يجني عليهم والـــدان مستهتران لا يقيمان وزنا لمستقبل ابنائهم ، فيصبحون سما زعافا يهـــلك مجتمعهم ويهوى به وبالوطـــن كله الى ما لا تحمد عقباه ، وفي حـــوادث الحياة وما نرى من وقائع المجتمعات المعاصرة اكبر دليل ، وخير شـاهـــد على الحالتين ، لكل هذا اوضحت وجهة نظر الاسلام في تكوين الاسرة قبـــل ان تتحقق واقعا ، فانتقاء لبناتها متوافقة منسجمة يقيم بنيانها وهو ثابت اصله وفرعه في السماء حتى تضمن سعادة الوطن وامنه وسلامته ، فالام والاب هما حجر الزاوية في عز الاسرة او بؤسها وقوام امن مستقبلها او عامل هدمه، باستقامتهما تستقيم الامور وبانحرافهما تتعقد الحياة وتفسد وقد تتلاشى ان لم تتداركها رحمة الله جل وعلا .

وليكن معلوما علما يقينيا بعيدا عن الجدل والادعاء ، ان الشعـــــور الانساني الاصيل لا يكاد يختلف في مكان او زمان عنه في مكان او زمان آخر ، نحو الاشياء المحيطة بالانسان من العلائق الانسانية والروابط الاجتماعية والصلات الوطنية والحب القوي الصادق للارض التي يعيش على ترابها ولمن يعمرها ولدينه الذي ينظم حياته ويقومها ، ومن كان على صفة من الوالدين غرسها في ابنائه ، وتعهدها بالري والسقيا ورجا تحققها فيهم تنفيذا للرغبة الكامنة بين جوانحه المستكنة في حنايا ضلوعه الصادرة من اعماق خلجاته ، وقبل ان نبارح هذه النقطة من البحث نضرب لذلك مثلا شرودا لامراتين باعد بينهما الزمان والموطن تباعدايقاس بالاجيال المتطاولة والاميال الكثيرةالعددذوات ما لا يحصى من الاصباح والامساء ، ولكنهما اتحدتا موقفا وشعورا وحركة قلب واتجاه حنان ولفظ لسان ونظرة الى الواقع لا تختلفان في شيء من ذلك كأن احداهما قد اقتدت بالاخرى في اجمل خلجاتهما النفسية وتصـــرفاتهما الحسية،وعاشت الاولى«في اسبرطة» قبل ميلاد المسيح عليه السلام (٥٠) وكانت اما لخمسة ابناء ذهبوا جميعا الى ساحة الوغى يحملون ارواحهم على اكفهم دفاعا عن وطنهم وجلست الام تترقب انباء المعركة وجاءها من يبلغها ما كان ، وتردد لانه يراها اخبارا تحرق كبد الام ، وسهاما نافذة الى صدرها تخترق كيانها وتأتي على ذمائها ، وحار كيف يواجه الام فالموقف جد عصيب، ولكن الوالدة اللهفى على استطلاع ما وراءه تستعجله في اصرار وتبادره ما وراءك ؟ ويجيب : لقد سقط بنوك الخمسة صرعى ، فصاحت : ما عن هذا

---

(٥٠) أورد قصتها جان جاك روسو في كتابه «اميل وصوفي».

سألتك اليها اللعين!! اللعين المنكود!! فأردف يقول - وقد أدرك ما تعني - لقد حالفنا النصر، وما ان سمعت ذلك الخبر حتى أسرعت الى المعبد متهللة مغتبطة حاملة القرابين لآلهتها سرورا وشكرا على النصر المبين .. ويعلق « روسو » على هذه الحالة قائلا : « هكذا يجب ان تكون الام المثالية ولا شك ، ثم يستطرد : ان من يعطي الاهمية للعواطف الطبيعية في النظام الاجتماعي لا يفقه شيئا ، وسيظل متناقضا مع ذاته ، متأرجحا بين ميوله وواجباته ، فلا هو انسان ولا هو مواطن ، لا خير فيه لنفسه ولا لسواه ، ولكي تبرز شخصية المرء ويكون مثاليا في كيانه ينبغي أن يتفق عمله مع قوله فيكون على بينة مما يفعل ويفعل في حزم ومثابرة ..... ونعرج على المراة الثانية وهي الخنساء الشاعرة المخضرمة الجاهلية المسلمة فنراها في جاهليتها تندب اخاها «صخرا» ندب النائحة الثكلى الوالهة اليائسة من الدنيا ومن فيها لانها لا ترى الا خيرا قد فات تحصيله ومفقودا لا يمكن رده ولا تعويضه ، وقد كان صخر أخا غير شقيق لها الا انه كان ذا فضل وارف عليها ومن قولها تبكيه :

يذكرني طلوع الشمس صخرا وأذكره لكل غروب شمس

فلولا كثر الباكين حولي على اخوانهم لقتلت نفسي

ولما اسلمت — وهي هي بهيئتها ودمها واعصابها وشعورها لم يتغير ولم تتبدل في مظهرها الا ان الشيب قد غزاها ووهن العظم اعتراها واضحت في حاجة ماسة الى من يعينها على وعثاء الطريق واعباء الحياة ومتاعبها — حسب العرف المصطلح عليه اجتماعيا ، والعادة التي حكمت الناس بيئة — ولكن العجب الآخذ بالالباب هو ما كان منها يوم ذهب ابناؤها الاربعة الى احدى المعارك الاسلامية مدافعين عن عقيدتهم تلبية لاوامر الله ورسوله وجهادا مقدسا في سبيل المثل العليا ، ويعود البشير الذي تتلهف على أخباره ويحمل الى سمعها ما حمله مثيله منذ عدة قرون الى قرينتها الاسبرطية ، لقد انتصرنا ولكن ابناءك جميعا صاروا وقود المعركة ومدرج النصر ، لقد وقعوا صرعى في ميدان الشرف والشهادة . فتصيح وهي مشدودة بأمراس قوية الى الله رب العالمين ، ويدوي صوتها في أسماع الدنيا ويشهد التاريخ ويسجل في اضابيره قولها : « الحمد لله الذي شرفني بمقتلهم في الاسلام » فقل بربك ايها المتبصر تلك السطور النيرة المضيئة ، اي انقلاب هذا في الطبائع واي تبدل في الاحاسيس ، هناك اخ غير شقيق يطعم فناء لفناء ، تكاد تذهب نفسها حسرات عليه اسى لموته ، وهنا ابناء صلبيون يخرون صرعى القنا والقنابل وتمزق اشلاءهم الصوارم ، وأمهم ضاحكة مستبشرة تفرح وتمرح

وتسر وتصلي شكرا لله الذي تقبلهم شهداء في سبيله ، ان هذا لعمر الحق هو العجب الذي ما بعده عجب ، واعود فاقول : هي هداية الله وقوة الايمان به سبحانه ، والتعليق على الواقعتين هو ان الطبائع البشرية اذا كرمت ووجدت من يغذيها بالخير ويرغبها ـــ وهي طائعة مختارة ـــ في رضا المعبود بحق سبحانه ربي جل وعلا ، تسامت وتعالت وآتت اكلها كل حين بأذن ربها ، فالاسبرطية كانت مؤمنة بألهتها ووطنها ترى الحياة لكل اسبرطي هي الموت دفاعا عن ترابها عن ما اعتقدته حقا وصدقا ، وكذلك المراة المسلمة التي آمنت بالله تعالى وبرسوله ووثقت بوعده الذي لا يتخلف ، ووعت جمال الشهادة في سبيل الله ، فاعتبروا يا أولي الابصار ...

ولنمض الى الطور الثاني من أطوار الطفولة وهو طور الحمل ، حمل الطفل جنينا في رحم أمه ....

٢ ـــ **الطـــور الثـــاني : الحمـــل** : بعد ان يسكن الزوج الى حليلتـــه التي ارتضاها شريكة لحياته يفضي اليها وتفضي اليه ، وقد وصلا الى هذا الارتباط الكريم بمحض ارادتهما وبكامل حريتهما دون ضغط أو اكراه من اي مصدر خارج عن ذاتيهما ، وما رايت رابطة اقدس ولا اطهر ولا احق بالحفاظ عليها من رابطة الزوجين ، يكفي ان تتلو في ذلك قول الله تعالى (ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم ازواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) (٥١) فالتواصل القائم بين الزوجين لا تدانيه اي علاقة اخرى في السمو والكمال والاثار المترتبة عليه ، اذ تجد بين القرينين من التراحم ما لا نجده بين ذوي الارحام وليس هذا لمجرد الشهوة فانها قد تنتفي بمرض أو بكبر وتبقى الرحمة لانها بجعل الله تعالى وبخلقه وبالرحمة يدفع الانسان المكاره عن حريمه وكل ما يسوء من قريب أو بعيد ، فسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (خيركم خيركم لاهله وانا خـــيركم لاهلي) (٥٢)، ويقول « روسو » على لسان « اميل » : (لا اريد سوى شريكة حياتي فانها القيد الوحيد الذي ارحب به) تلك هي الحياة الزوجية الكريمة التي يريدها الاسلام لتنشئة جيل مسلم بحق،وطني بصدق،مؤمـــن بحقه في الحياة الحرة الكريمة في ظل رب عادل رحيم ، **وهنا يثمر اللقاء بين الزوجين نسلا مباركا** مبدؤه الحمل ، وما ادراك ما الحمل انه مشقة عظيمة ، وعـــبء ثقيل ، تعاني منه الام ما تعاني صابرة محتسبة اجرها عند الله وحده فوفاء

---

(٥١) الآية رقم ٢١ من سورة الروم.
(٥٢) رواه الحاكم.

الاولاد وبرهم احتمال ، وما يتطرق اليه الاحتمال لا يصلح قاعدة ، يقول الله تبارك وتعالى : « ووصينا الانسان بوالديه احسانا حملته امه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا » (٥٣) اي قاست امه في حمله مشقة وتعبا من وحم وغثيان وثقل وكرب ، الى غير ذلك مما ينال الحوامل فيسهرن لليالي الطوال ، متقلبات على احر من الجمر ، وتضع حملها كرها اي بمشقة عظيمة تنفطر من هولها الراسيات،معانية اشد الآلام وما لا يطاق من الاعتصار والطلق،ولهذا اوجب الاسلام ان تحاط الحامل بكل رعاية وعناية ، اذ يلزمها ان تكون مستريحة الجسم والفكر مستجمة القوى ، وان تعرض نفسها على الطبيب كلما دعا الامر الى ذلك ، فالعلاقة وثيقة جدا بين الجنين وامه يحيا بحياتها ويحويه شخصها وتضمه احشاؤها وتؤثر فيه انفعالاتها النفسية ايما تأثير ، تقول الطبيبة المعاصرة « اتليس ايرستروم » طبيبة النساء والولادة بـ(استكهولم) عاصمة السويد (٥٤) « ان الام التي تعاني قلقا نفسيا اثناء الحمل تنجب طفلا قلقا قد يلازمه الضجر والسأم في جميع مراحل عمره ، فهناك ادلة قوية على ان الانفعالات الوجدانية التي تعتري الام ، اثناء الحمل تضر بصحة الجنين النفسية وتؤثر على شخصيته فيما بعد ، كما ان حركة الجنين في بطن امه القلقة تتزايد ، ويستمر ذلك الافراط في نشاط الطفل وتغلب على مزاجه الى ما بعد الولادة متخذا عدة صور كالعبوس والبكاء والتذمر ولهذه الحالات علاقة وثيقة بصحة الطفل عندما يتقدم به السن ... » وحماية الحامل اسلاميا تندرج تحت قول الله تبارك وتعالى : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » . (٥٥) فالعبرة في الآيات الكريمة بعموم الحكم لا بخصوص السبب ، وهنا ينهى الله سبحانه عن التقصير في دفع المكاره التي تسبب ضررا للانسان وهلاكا ، واي ضرر وهلاك اشد من ان يخرج الجيل الصاعد مشوها خلقيا منحرفا خلقيا من جراء ما يلاقي متأثرا بما يعتري الام اثناء الحمل من اضطرابات ، فمن اللازم شرعا ان تكون الحامل صحيحة الجسم سليمة من الادواء ايا كانت لانها مسئولة عن الوديعة التي استودعها الله اياها ، فلا يصح بحال تحميل المرأة فوق طاقتها اثناء الحمل ، وان كان هذا حقها دائما فهو في حالة الحمل اشد لزوما ، والاسلام يأمر بتوفير الراحة لها ما استطاع القائم على امرها الى ذلك سبيلا ، زوجا كان او اخا او وليا او وصيا ... ويرعى الاسلام حق الجنين

---

(٥٣) الآية رقم ١٥ من سورة الأحقاق.

(٥٤) عن جريدة القبس (العدد ٢٦٩٦ الصادر في ١٨/١١/١٩٧٩م).

(٥٥) من الآية الكريمة رقم ١٩٥ من سورة البقرة.

في الميراث لو توفى والده قبل ولادته ، يقول الامام القدوري الفقيه الحنفي ما نصه : « ومن مات وترك جنينا وورثة يشاركونه أو يحجبهم حجب نقصان، وقف (بالبناء للمجهول) ماله حتى تضع امراته حملها في قول ابي حنيفة النعمان لئلا يحتاج ــ بعد الولادة ــ الى فسخ القسمة ، وان كان يحجبهم حجب حرمان وقفت القسمة اجماعا) (٥٦) ويقول : « واذا ضرب بطن امراة فألقت جنينا ميتا فعليه غره (بضم الغين المعجمة وتشديد الراء المهملة المفتوحة) والغرة نصف عشر الدية (٥٧) . وان القته حيا ثم مات فعليه دية كاملة ، وان القته ميتا ثم ماتت الام فعليه دية وغرة ، وان ماتت الام ثم القته ميتا فعليه دية في الام ولا شيء في الجنين ، وما يجب في الجنين موروث عنه ... الخ » .

ويرعى الاسلام (الطفل اللقيط) فهو حر مسلم ونفقته من بيت مال المسلمين . قال الامام القدوري : « ... فان التقطه رجل لم يكن لغيره ان يأخذه منه ، فان ادعى مدع انه ابنه فالقول قوله ، وان ادعاه اثنان ووصف احدهما علامة في جسده فهو اولى به ، واذا وجد في مصر من امصار المسلمين أو في قرية من قراهم فادعى ذمي (يهودي او نصراني) انه ابنه ثبت نسبه منه وكان مسلما (لان دعواه تتضمن انسب وفي الوقت نفسه تتضمن ابطال الاسلام الثابت بالدار الاسلامية التي وجد اللقيط فيها . ودعوى النسب نافعة للصغير واما ابطال الاسلام فضار به ، فصحت دعوى الذمي فيما ينفع الصغير ورفضت فيما يضره) . وان وجد في قرية من قرى اهل الذمة (اليهود او النصارى) او في بيعه او في كنيسة كان ذميا (يهوديا او نصرانيا) ومن ادعى ان اللقيط عبده لم يقبل ، فان ادعى عبد انه ابنه ثبت نسبه منه وكان حرا ، وان وجد مع اللقيط مال مشدود عليه فهو له ... الخ » . (٥٨)

---

(٥٦) ص ٣٢٦ حـ٣ اللباب في شرح الكتاب للميدانى الحنفي.

(٥٧) ص ٦٢ المصدر السابق نفسه .وفي ص ٤٤ حـ٣ ما نصه : «ودية شبه العمد عند ابي خليفه وأبى يوسف مائة من الابل ار باعا: وهي: خمس وعشرون بنت مخاض وهي التني طعنت في السنة الثانية من عمرها. وخمس وعشرون حذعة وهي التي طعنت في السنة الخامسة.. ودية القتل الخطا مائة من الابل اخساسا وهي عشرون ابن مخاض وعشرون بنت لبون وعشرون حقه وعشرون جذعة والدية من الذهب: الف دينار ومن الفضة عشة آلاف درهم.

(٥٨) ص ١٨٣ حـ٢ من المصدر نفسه.

٣ ــ الطـــــور الثالث : ما بعد الولادة مباشرة الى ان يبلغ اشده :

يقول الحكيم العربي : « لاعب ولدك سبعا وادبه سبعا وصاحبه سبعا ثم الق حبله الى غاربه » (٥٩) ، ونسير في بحثنا هذا مع هذه الحكمة التي قيلت ونشأت في ظل الاسلام ، فاذا برز الطفل الى الوجود خارج رحم امه بدت حقوقه واضحة جلية قوية على الوالدين معا ، فهو في مهده محتاج الى قلب الام التي تكون سلوكه في مستقبل حياته مع درها الذي يبني جسمه ، وحنانها الذي يهذب طباعه ، ولهذا وضع الله في لبانها الغذاء الذي لا يمكن الحصول عليه من مصدر آخر مهما كان ، (ويسأل في ذلك السادة الاطباء لتعميق المعرفة) قال الله تعالى : « والوالدات يرضعن أولادهن حـــولين كاملين لمن اراد أن يتم الرضاعة » (٦٠) . وهنا يتعانق واجب الاب مع واجب الام (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) في حدود النفع الاكيـــد والتوجيه الحكيم والراي السديد دون عنت او مشقة على اي منهما (لا تضار والدة بولدها ولا مولود له بولده) وان فقد الاب فليتول الانفاق والرعـــاية الوارث حسب الاصول المرعية التي قررتها الشريعة السمحاء (وعلى الوارث مثل ذلك) ، وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من الاهمال او التقصير في الانفاق والحماية وحسن الولاية فقال صلى الله عليه وسلم : « كفى بالمرء اثما أن يضيع من يقوت » (٦١) ويقول عليه افضل الصلاة وازكى السلام : « وابدأ بمن تعول : يقول الولد اطعمني الى من تدعني » (٦٢) وقال صـــلى الله عليه وسلم : « افضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله ودينـــار ينفقه على فرسه في سبيل الله ودينار ينفقه على اصحابه في سبيل الله » ، قال ابو قلابة : بدا بالعيال ، فأي رجل اعظم اجرا من رجل ينفق على صغار يعفهم الله به ويغنيهم » (٦٣) . وينهى القرآن الحكيم عن ايذاء الطفل (ذكرا كان أو انثى) بسبب فقر وضيق ذات يد فيقول جل وعلا : « ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم واياهم » (٦٤).وفي آية اخرى يقول سبحانه : « ولا تقتلوا

---

(٥٩) يورد بعضهم هذا القول على أنه حديث الشريف ولكنه ليس وانما هو لحكيم عربى مجهول الاسم وقد اثبته مترجم كتاب (اميل القرن التاسع عشر) بالصفحة الأولى. واطلع عليه السيد/ محمد رشيد رضا صاحب المنا لأنه مصحح بالكتاب .

(٦٠) الآية ٢٣٣ من سورة البقرة. (٦١) رواه داود والحاكم واحمد في مسنده .

(٦٢) من حديث رواه البخارى.

(٦٣) رواه مسلم.

(٦٤) الآية ١٥١ من سورة الانعام.

اولادكم خشية املاق نحن نرزقهم واياكم ان قتلهم كان خطئا كبيرا » (٦٥) فنهى جل وعلا عن التخلص من الولد لفقر حاصل فعلا او خوف فقر متوقع بسبب كثرة افراد الاسرة ، وعلى الوالد او العائل ايا كان أن ينفق على قدر طاقته واستعداده وما يملك من ثروة ومال فان كان غنيا فلا حق له.أن يضيق على من يعول ، واما اذا كان فقيرا فليبذل في حدود طاقته ، قال الله جل شأنه : « لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا الا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا »(٦٦) ولدى تسمية الطفل (ذكرا كان او انثى) يجب على الوالدين متعاونين احسان اسمه ، فقد روى عن ابي الدرداء رضي الله عنه انه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم واسماء آبائكم فأحسنوا اسماءكم » (٦٧) وروى البيهقي : (من حق الولد على والده أن يحسن اسمه وان يحسن أدبه « والبنت كالابن سواء بسواء في حق الرعاية والارضاع والانفاق ، وقد شدد الله سبحانه النكير على الذين كانوا يئدون البنات واوعدهم اشد العقاب ، قال سبحانه : « واذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت » (٦٨) على أن فعل الجاهليين هذا قد تجاوز البنات الى البنين يدل على ذلك نهيه سبحانه عن قتل الاولاد عامة فالولد يتناول الذكر والانثى » (ولا تقتلوا أولادكم) وعاب كراهيتهم للبنات وسماه فساد تدبير وسوء تقدير وتعسفا في الحكم وخروجا عن طاعة رب العالمين،، (« ساء ما يحكمون » (٦٩). ونص على وجوب الاحسان الى البنات صراحة حتى لا يتفلت منه احد بالتأويل ولكي يتأكد ثبوته لهن دائما ، فقد روى مسلم عن انس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى اله عليه : « من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين وضم اصابعه» ، وروى احمد في مسنده عن عقبة بن عامر الجهني قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من كان له ثلاث بنات فصبر عليهن وسقاهن وكساهن من جدته (اي من ماله) كن له حجابا من النار « وروى الحميدي عن ابي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال : « من كان له ثلاث بنات أو ثلاث اخوات أو بنتان أو أختان فأحسن صحبتهن وصبر عليهن واتقى اللهفيهن دخل الجنة» ومن توجيه رسول

---

(٦٥) الآية ٣١ من سورة الاسراء.
(٦٦) الآية ٧ من سورة الطلاق.
(٦٧) رواه ابو داود.
(٦٨) الآية ٨ من سورة التكوير.
(٦٩) من سورة النحل.

الله صلى الله عليه وسلم الاطفال الى حسن اللياقة والادب مارواه البخاري ومسلم عن عمرو بن ابي سلمة رضي الله عنهما قال : كنت غلاما في حجر رسول الله صلى عليه وسلم (اي تحت نظره وفي رعايته) وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي صلى الله عليه وسلم : « يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك » ... ومما وصى به الاسلام انه يجب على الوالدين ان يشعرا الاولاد بالعطف واللطف والحنان فقد روى الشيخان : ان اناسا قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوا : هل تقبلون صبيانكم ؟! فقال : « نعم » فقالوا : لكنا والله ما نقبل ! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أوأملك ان كان الله قد نزع الرحمة من قلوبكم » وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل « ومعه صبي فجعل يضمه اليه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أترحمه » ؟ قال : نعم ، قال : « فالله أرحم بك منك به وهو أرحم الراحمين » وروى البخارى أيضا عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاءت امرأة الى عائشة رضي الله عنها فأعطتها عائشة ثلاث تمرات فأعطت كل صبي لها تمرة وأمسكت لنفسها تمرة فأكل الصبيان التمرتين ، ونظرا الى أمهما فعمدت الام الى التمرة فشقتها فأعطت كل صبي نصف تمرة فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته عائشة رضي الله عنها فقال : « وما يعجبك من ذلك ؟ لقد رحمها الله برحمتها صبييها والاحاديث والاثار في ذلك كثيرة . فاطئنان الولد « ذكرا كان أو انثى » الى وجود والديه بجانبه دائما وشعوره بالعطف القلبي الحقيقي الذي لا يتحقق من غيرهما يعطيه الامان والراحة النفسية وكل ما يهيئه لمستقبل هانيء سعيد ، ويحمله على التجاوب مع عشرائه في مجتمعه الكبير وسعيه حين يشب عن الطوق فيما يسعد وطنه ، وعلى العكس من ذلك ما أثبتته الوقائع التي تمر بمجتمعاتنا المعاصرة من أن تنافر الوالدين ورعونة تصرفهما واهمال الاشراف على أولادهما يعود بأسوأ النتائج على فلذات اكبادهما ، اذ يتصور الولد المضطهد عائليا المهمل من والديه أن المجتمع كله عدو له فيحاول أن ينفث سمومه فيه ، ويعكس في كبره على من حوله كل ما لاقى من اضطهاد واهمال في صغره دون أن يحس بما يصدر منه ، فاذا شاهدنا انسانا خيرا فاضلا مقبلا على عمله ناشرا الفضل على من حوله مواسيا في البأساء مشاركا في السراء ، قلنا هذا ابن فلان الطيب الطاهر ، والشيء من معدنه لا يستغرب ، وكل اناء بالذي ينضح ، وأما اذا وجدنا النقيض في انسان شرس مشاكس جلاب للشرور منافق مؤذ صحنا مع القائل :

وهل ينبت الخطى الا وشيجه وتغرس الا في منابتها النخل

وتلك خسارة ومهلكة للانسانية لا يرتضيها الاسلام الذي يؤكد قرآنه الحكيم ان امة الاسلام هي خير امة اخرجت للناس ، وانها هي الامة الوسط التي قال الله سبحانه فيها : « وكذلك جعلناكم امة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » فتجاوب الوالدين وتقاربهما امر لازم لسعادة الاطفال وله اثره البالغ فيما يستقبل من امرهم ، ومن الحكم التي تركها لنا المسلمون المخلصون لدينهم واسرهم « اذا كان من الجوهري ان يحب الرجل اطفاله فمن الجوهري ان يحترم امهم » وهذا الحب المتبادل هو ترياق الحياة الزوجية ولا مراء .... وتكوين سلوك الاطفال يتوقف بصفة اصيلة على امهم ، وكم هو رائع ذلك الحنان وتلك المهمة الكريمة الشاقة والمحببة في الوقت نفسه التي تناط بالام كي تربط الاسرة برباط الوحدة والمحبة ، فبحسن سياستها وجميل كياستها تستطيع الوصول في هدوء الى ماتريده فالمراة على ذلك اقدر من الرجل ، اذ الدهاء مزية اساسية عند المراة ، ولولا حسن حيلتها وبديع كياستها وشدة جلدها وصبرها لتبدد شمل كثير من الاسر ، ولنسق مثالا لطيفا ساقه « روسو » في كتابه «اميل وصوفي» مدللا على بديع دهاء المراة منذ نعومة اظفارها : يقول روسو : (من الشائع انه يحرم على الاطفال طلب شيء وهم على مائدة الطعام ولعل هذا كان تقليدا في عصره بالقرن الثامن عشر ، فقد شاهدت اطفال فرنسيين اثناء اقامتي في باريس وهم يطلبون ما يريدون من اصناف يحبونها ولم تطلها ايديهم على المائدة في ادب ورقة وحياء وتقدم لهم ، الا اني رايت ضابطا كبيرا من قوة الحلفاء بالمانيا الغربية يمنع بنته الصغيرة التي لم تتجاوز الحادية عشرة من عمرها من تناول النبيذ الذي يدمنه الفرنسيون ـ يقول روسو : والذي حدث ان الغلام الصغير ضاق ذرعا بذلك وصرخ طالبا النوع المحرم عليه ، اما الفتاة ، فانها عمدت الى الحيلة دون ان تعرض نفسها للزجر او العقاب ، فنظرت الى الصنف الذي لم يقدم لها والذي تحبه كثيرا وهي تشير باصبعها الى كل طبق مما اكلت منه حتى اذا وصلت الطبق المحرم اشارت اليه دون ان تتكلم وعندئذ سألها احدهم : الم تأكلي من هذا ؟! . فغضت جفنيها في دلال وتنهدت قائلة : كلا للاسف !) . ثم يعقب (روسو) على ذلك بقوله : (حقا ان هذا لمنتهى الدهاء في الوصول الى المطلوب من غير طلب ، ومن غير تعرض للعقاب) وبهذا تتمكن المراة من حفظ كرامتها ندا للرجل بل واكثر من ذلك فتحكمه من حيث تطيعه ، وتدبر له شئون حياته دون ان يحس بانها القائدة فعلا والمسيطرة عمليا وصاحبة الراي الاخير في كثير من الامور ذات الاثر البعيد في حياة الاسرة بل وحياة المجتمع كله الا ان الزوج الحصيف هو حكمتها وزمامها في رفق وهوادة وهي لا ترفض ذلك ولا تعارض فيه ما

دامت تشعر بذكائها النفاذ بالتجاوب المتبادل وتدرك الرغبة الصادقة في طهر العلاقة ونموها وكمالها ، وهذا معنى قوله تعالى : « وللرجال عليهن درجة » فالدرجة هي وضع الامور في نصابها والتسامح عما لا يضر بالاسرة من فعال الزوجة عافاها الله وأكرمها (٧٠) .

وفي هذا السطور الذي نحن بصدد الكلام عنه لا بد من تدريب الطفل على القيام بشعائر الدين بالقدوة الحسنة والاسوة الطيبة يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مروا أولادكم بالصلاة وهم ابناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع » (٧١) والطفل فيما قبل السابعة أو حواليها شديد التقليد فمتى رأى أمه تصلي وقف الى جانبها يتابعها في حركاتها ولو لم يدرك تماما معنى ما تفعل ولا سر ما تؤديه من حركات ، واذا شاهد والده خارجا الى المسجد (يوم الجمعة) تعلق به بدافع حب الاستطلاع وصاح : (خذني معك) وهذا ما يشاهد واقعيا ولا يحتاج الى برهان ...

فاذا بلغ الطفل العاشرة من عمره سائرا الى سن الرشد حسب نموه الجسماني ، وجب على الوالدين أن يحثاه على العمل الطيب بشيء من الحزم مع الرحمة المشربة بالحنان ، لانه يبدأ في ادراك ما يدور حوله تبعا لنموه العقلي ادراكا مناسبا متحملا تبعات ما يصدر منه ملما بردود الفعل لما يأتي وما يذر ، كما أن الاطفال السليمي البنية يصلون الى مرحلة المراهقة وتبدو هذه المرحلة بنذر من التغيرات في المزاج والشكل والوجه وهو اول ظهور الاهواء وشطط التصورات وتضارب النزعات وشطوح الخيال ، والذي يكبح جماح النفس في هذا الطور من حياة الطفل هو التربية الدينية بغرض ما يقرب الى الله تعالى عمليا للنفوذ الى تكوين رابطة بين تفكير الناشئة وبين العقيدة السمحاء والوسيلة الى ذلك هو اداء الصلاة ، قال صلى الله عليه وسلم ، (واضربوهم عليها (أي الصلاة) وهم ابناء عشر سنين) والضرب عند التقصير يكون باليد ضربا خفيفا غير مؤلم يراد به توجيه الطفل الى واجبات الدين ليعتادها اذا رشد دون مبالغة أو تقصير ، بمعنى أن يداوم على أدائها باقبال ذاتي دون دافع من خارج نفسه ، فأحب الاعمال الى الله أدومها وان قل ، وبالصلاة يعرف بعض آيات القرآن الكريم ،

---

(٧٠) يراجع في ذلك تفسير ابن جرير الطبري عند قوله تعالى « وللرجال عليهن درجة» فقد ابدع في الشرح وكان رأيه الخاص بعد أن سرد كل الآراء هو القول الفصل وهو ما المحنا اليه.

(٧١) رواه الطبراني.

ويدرك ان محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم متساميا الى الشعور بثواب الله تعالى وعقابه ، فيقبل مشوقا للعبادة ، وفي قلبه خشية الله فلا يفصل ما يغضبه ، ويحسن أن يلتقي بأصدقاء في مثل سنه يؤدون الصلاة ، ولا شيء افضل في هذه المرحلة من القدوة العملية ، فليكن البيت خلية محبة وخير وايمان وتعاون على البر والتقوى ليرى الطفل راى العين ما ينبغي أن يكون عليه من سلوك حسن دون أن يلقن الحكم والمواعظ تلقينا جافا لا روح فيه ، وليترك للتجربة العملية الواقعية الممكن تحقيقها بصورة مقبولة محمودة الاثر ، فالتجربة أعظم استاذ عن طريقها يتعلم وبما يدركه يدركه منها يتأسى يتأدب لكن مع الملاحظة الدقيقة لتصرفاته دون أن يشعر ، وذلك لادراك مراميه ومقاصده من افعاله وليعرف مزاجه الخاص في تصريفها ، فاختبار الحياة هو العاصم الوحيد من الغرور ومن محاولة التفلت من سياج الفضائل المتعارف عليها ، ولا يجمل بمعلم الطفل أن يظهر بمظهر الوقار الزائف ويتصنع الحكمة والرزانة بل يجب أن يشاركه في ادراك احكامه ويصححها له ويقوم من معوجها وبذلك يهذبه دون أن يهينه ، ومن الانانية المقيتة أن يستأثر المعلم بلذة التعليم كلها منفردا بل الواجب عليه ان يترك لمن يعلمه فرصة للاستنباط والكشف عن بعض المعميات في نظره ليعتاد انتغلب على مشاكله وليتمرس بالبحث عن مغاليق الكون مستقبلا ، وذلك يشعره بكيانه ويرضيه عن عمله ويود لو اطرد نجاحه واستمر وذلك ايضا يغريه بالسعي الحثيث نحو الكمال المؤمل فيه والمرجو له . .

وفي التربية الخلقية وتنمية الذوق العام عند الطفل والشعور بالحرية بعيدا عن بعض القيود المعوقة يقول عليه افضل الصلاة وازكى السلام : « وفرقوا بينهم في المضاجع) اي اجعلوا لكل منهم مكانا مستقلا للنوم فلا يضطجعوا في سرير واحد او في فراش جماعي لان الاستقلال في المنام يعطي الولد حرية كاملة في حركاته وسكناته بعيدا عن اعين اخوته الاخرين ، فقد يتعرى النائم (ذكرا كان أو انثى) دون ارادته وبلا قصد ، أو يبدو منه ما لا يحب أن يطلع عليه غيره فالنائم لا يستطيع التحكم فيما يصدر عنه ، كما يعلمه الانفراد في النوم الاستقلال ويدرك ان الاعتماد على النفس شيء هام بالنسبة له حيث يحرص على ترتيب مكان نومه وتنقيته من الشوائب وايقاد مصباحه أو اطفائه والبعد عن الحر والبرد بفتح نوافذه أو اغلاقها وبهذا يدرك ايضا جمال الحياة وحب الوجود ويبعثه على التفكير في مصدر الظلام والنور والحر والبرد ومجرى الهواء الرخاء ومرسل الزوابع والاعاصير فيتساءل ويجاب عن تساؤله فيلتصق بالحياة وببارئها سبحانه ويعلم أن لكل

شيء مدبر وان مدبر الكون الاعظم هو قيوم السموات والارض .. وفي توجيه الرسول العظيم ضبط لاحوال الاولاد بنين وبنات اذ يجب عزل الاطفال عن البواعث المثيرة للاهواء انضارة الكامنة في تكوينهم لو وجهت توجيها معوجا بعيدا عن مراميها المخلوقة لها اساسا ، وليس هناك ما هو امثل من اتباع تعاليم الدين وحده مع حسن تصرف في التوجيه ، ومن خطل الراي ان يؤخذ في مثل هذه الاحوال براي غير المتدين ولكن اي متدين اني اقصد الفـــاته لدينه في فلسفته الاصيلة وروحه القويم وسبله التي لا تعقيد فيها ولا تزمت ولا انتواء ، فالمتدين الضيق العطن العائش على قارعة الطريق يضر اكثر مما يفيد ، واما المتدين الواسع الافق الصابر على حسن التصرف في التوجيه، والمثابر على آداء ما يعلمه الى من يعلمه فذلك هو صاحب الاثر الكريم الفعال (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) (٧٢) وفي الوقت نفسه يجب ان تدرك انهم خطاءون وان المثالية المطلقة غير ممكنة فيهم فاعف عن اخطائهم وداو كلوم القلوب بالاستغفار لهم ولا تستقل براي دونهم بل ادخلهم طواعية في تحمل النتائج معك حسنة كانت او معماة ، (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر) وعند استخلاص وتمحيص اتجاهاتهم ومعرفة وادراك مدى نفاذ بصيرتهم فيما انت بصدده ، عذ بربك ولذ بحماه والق احمالك في رحابه وامض لما امرت والله معك يكلؤك ويرعاك (فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين) وهكذا نعطي الناشئة فرصة كاملة ليندمجوا مع موجهيهم الاماثل وبالتالي يشاركون مستقبلا في ادارة شئونهم وشئون اوطانهم غير هيابين ولا وجلين ... فالمهم جدا أن لا يبتعد الاباء والمربـــون في توجيه الاولاد عن تعاليم الاسلام لان مصدرها (الذي خلقك فسواك فعدلك في اي صورة ما شاء ركبك) (٧٣) فهو سبحانه العليم بما يقوم الانسان ويسمو به الى اعلى درجات الفضائل ، وما يهوى به في حمأة الرذيلة والبلاء المبين ، ومن لاذ بحمى الله حماه « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » (٧٤)

واذا تعدد الاولاد اوجب الاسلام العدل بينهم في العطف والعطاء ، روى الطبراني قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اعدلوا بين اولادكم في النحل كما تحبون ان يعدلوا بينكم في البر) وقد انكر رسول الله صـــلى الله عليه وسلم التمييز بين البنين والبنات في المعاملة فقال « ساووا بـــين

---

(٧٢) الآية ١٥٩ من سورة آل عمران.
(٧٣) الآيتان من سورة الانفطار.
(٧٤) الآية رقم ٣ من سورة الطلاق.

اولادكم في العطية فلو كنت مفضلا احدا لفضلت النساء » وكان صلى الله عليه وسلم اذا راى فاطمة الزهراء ، رضي الله عنها قادمة قام لها عن مجلسه ، واخذ بيدها فقبلها « وعن أم خالد بنت خالد بن سعيد رضي الله عنهما قالت : اتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ابي وعلى قميص اخضر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (حسنة ، حسنة) يمتدح ثوبها وهي يومئذ طفلة ، قالت : فذهبت العب بخاتم النبوة فنهاني ابي ، فقال صلى الله عليه وسلم : دعها) ثم قال : « ابلى واخلقى ، ابلى واخلقى) دعاء لها بطول العمر والسعادة ، وروى انس ان رجلا كان عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاء ابن له فقبله واجلسه على فخذه ، وجاءت ابنة له فأجلسها بين يديه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (الا سويت بينهما) ؟! .وروى البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه ان اباه اتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : اني نحلت ابني هذا غلاما كان لي ، فقال صلى الله عليه وسلم : (أكل ولدك نحلته مثل هذا ؟) فقال : لا ، فقال صلى الله عليه وسلم : (فارجعه) وفي رواية اخرى : فقال : (افعلت هذا بولدك كلهم ؟) قال : لا قال عليه الصلاة والسلام : « اتقوا الله واعدلوا في اولادكم » وفي رواية ثالثة قال : (يا بشير الك ولد سوى هذا ؟) فقال : نعم ، قال : (أكلهم وهبت له مثل هذا ؟) قال : لا قال (فلا تشهدني على جور) ثم قال : (أيسرك ان يكونوا اليك في البر سواء ؟) ــ قال : بلى ، قال : (فلا اذن) . . . فالعدل بين الاولاد واجب ذكورا كانوا او اناثا دون تفريق بسبب الجنس او غيره ، لان العدل الحقيقي بينهم يقوي فيهم روح المودة ويجذب قلوب بعضهم الى بعض ويملأ جو الأسرة بالغبطة والتعاطف، فما من شيء يؤذي شعور الانسان كتفضيل غيره عليه دون مبرر واضح او مقتض لذلك التفضيل بل يعد ذلك ظلما صارخا وعدوانا مبينا على حقوقه ، وهذا يولد الاحقاد والضغائن في نفوس الاخوة والاخوات فينفر بعضهم من بعض ويحاول المنقوص حقه ايصال الاذى الى من فضل عليه ليظهر قدرته وفعاليته في مجتمع الاسرة ، وهذه البغضاء تنمو مع نمو الصغار وذلك سبب لانبات بذور العداوة في المجتمع الكبير حيث يشبون عن الطوق ويتهارشون متدافعين في الحياة العامة تهارش الكلاب وتدافع الحمر المستنفرة ، وكثيرا ما قامت حروب واستعرت بين أولاد فضل ابوهم بعضهم على بعض في ولاية او غيرها والامثلة في التاريخ تفوق الحصر ومنها ما وقع بين قادة ــ مسلمين كالذي حدث بين الامين والمأمون ولدي هارون الرشيد وانتهى بقتل الامين وانفرد المأمون بالحكم والسلطان ، وقديما قيل :

وظلم ذوي القربى أشد غضاضه على النفس من وقع الحسام المهند

فالواجب يحتم على الوالدين مراعاة ما أمر الله به هو ورسوله المصطفى في هذا الصدد من احسان معاملة الابناء على السواء لضمان وحدة الاسرة وتماسكها وتعاونها .

وقد رسم القرآن الكريم الطريق الواضح البين لتربيـــة الاطفال على حب الله والتجاوب مع المجتمع الانساني الفاضل ، وذلك مسطور في وصيـــة لقمان لابنة قال الله تعالى (٧٥) : « واذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله أن الشرك لظلم عظيم » موجها له الى رحاب الحرية الصحيحة وحمل الارادة المطلقة التي لا تخضع الا لبارئها ، ولا تتجه الا الى الواحـــد الاحد ، لانه لا سلطان الا سلطانه ولا قيود ولا سدود تمنع من الوصـــول الى رحابه وهذا ينشىء الطفل على الاستقلال في حدود اوامر الله وانله لا يأمر الا بخير يفيد البشرية عامة فخير الناس انفعهم للناس فتقوم العلاقات بين الافراد بعيدة عن القهر والغلبة ، والغزو المسلح والتسلط بالعنف فالكل امام الله سواء والتفاضل بالاعمال المقربة اليه وكل من يقدم للانسانية خيرا ماديا كان او ادبيا فهو قريب اليه تعالى . . . ثم يمضي لقمان مع ابنه مستدلا له على قدرة الله بالبرهان العقلي « يا بني انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة او في السموات او في الارض يأت بها الله ان اللـــه لطيـــف خبير » ثم يأمره بعبادة الله وحده والتجرد له ، والتفاعل مع المجتمع الذي يعيش فيه بحيث يكون عضوا عاملا على تنقية مجتمعه من كل رذيلة داعيا الى كل خير وفضيلة بالقدوة الحسنة والكلمة الطيبة وان يتحمل الآلام مهما تنوعت اشكالها وتعددت مصادرها في سبيل نشر الهدى والنور واجتثاث الغـــي والبغي والآثام : (يا بني أقم الصلاة وامر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما اصابك ان ذلك لمن عزم الامور) ثم يرشده الى الخلق الحسن الكريم الذي يمكن له في قلوب الناس ويجعل منه الاسوة والقدوة في السلوك القويم : (ولا تصعر خدك للناس ولا تمشي في الارض مرحا ان الله لا يحب كل مختال فخور . واقصد في مشيك واغضض من صوتك ان انكر الاصوات لصوت الحمير) وتذكرني هذه الآيات الكريمة بنصيحة « روسو » العائش بالقـــرن الثامن عشر ، اي بعد نزولها باثنى عشر قرنا تقريبا وذلك في كتابه : (اميل وصوفي) حيث يقول : (وانا ـــ (اي روسو) ـــ لا اريد لاميل ان يكون

---

(٧٥) الآيات الكريمة (الوصية كاملة) من سورة لقمان من ١٣ الى ١٩.

متعجرفا او فظا او جافا في خطابه للناس ، حتى اني اوثر ان يخاطبني بكلمة « افعل كذا » برجاء قلبي وحنان وود ، على ان يقول : (من فضلك) او (ارجوك) في نبرة توحي بالعجرفة والكبرياء ، فاللفظ لا يهمني بقدر ما يهمني الشعور الذي يصاحب اللفظ ...) .

ومن التمكين للالفة والمحبة بين الاولاد ووالديهم ان يتناول الوالدان طعامهما مع اولادهما في مواعيد منتظمة ايناسا لهم وقياما بحق رعايتهم وتمكينا للآداب الاجتماعية الاسلامية فيهم ، فعن سفيان بن عيينة رضي الله عنه : (ان الملائكة يصلون على اهل بيت يأكلون جماعة) اي يدعون لهم ، ومن المعلوم ان كثيرا من المشاكل المستعصية يحل وتذوب عقده على موائد الطعام ولهذا قيل : (من عرفت الطريق الى معدة زوجها فقد عرفت الطريق الى عقله) وهذا نفسه ما يجري على المستوى العالمي ، فقبل تلاقي الوفود السياسية او الاجتماعية او الثقافية على مائدة المفاوضات تسبقها موائد الطعام ، وبعد ان يستقر الزاد في الامعاء ثم يهدأ تبدأ المناقشات المطلوبة ، فما اجدر ان يكون ذلك في نطاق الاسرة كدرس اولي للاطفال ينفذونه يوم تمضي بهم الايام في درجات اعمارهم ، ومنه ايضا يتعلمون حسن الخلق واذوق الاجتماعي اذ يجلس كل في مكانه المقرر المخصص له على المائدة ولا يتعداه ، والكل منصت الى الاب والام يتجاذبان اطراف حديث ممتع او قاصين خبرتهما للحياة على مسامع اطفالهما ، ويجمع الفضل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما نحل والد ولده من نحل افضل من خلق حسن) (٧٦) .

وليس معنى العناية بتنشئة الاطفال تنشئة حسنة صالحة ان نبعد الطفل نهائيا عن الآلام ومتاعب الحياة ، فان من يشب دون التمرس بالالم يعيش بلا خبرة ولا شجاعة ، فيتوهم الموت من ابسط وخزة ، ويفقد الوعي اذا سالت من اصبعه قطرة دم ، وقد عاب القرآن الكريم عيش الرخاوة والترف المقيت فقال سبحانه تعالى : « او من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين » (٧٧) قال الشيخ المراغي رحمه الله : (في هذه الآية الكريمة دلالة على ان النشوء في النعومة والزينة ولين الحياة من المعايب والمذام للرجال ، فعليهم أن يتجنبوا ذلك ويأنفوا منه ، ويربأوا بأنفسهم عنه) (٧٨) وروى ان

---

(٧٦) رواه الترمذى والبيهقي (في شعب الايمان).
(٧٧) الآية ١٨ من سورة الزخرف.
(٧٨) تفسير المراغي حـ ٢٥ ص ٧٧.

عمر رضي الله عنه قال : « اخشوشنوا في الطعام واخشوشنوا في اللباس ، وتمعددوا » اي تزيوا بزي معد (قبيلة عربية) في تقشفهم . « ... وابعاد الطفل عن مشاكل جنسه البشري ومتاعبه اخراج له عن طبيعة تكوينه ، فليس في هذه الحياة سعادة حقة ممكنة خالصة من الآلام ، ولا وسيلة لتذوق الخير وادراك حلاوة النجاح الا بعد التمرس بالمشقات ، والمعاناة والاصطدام بمشاكل الحياة ، ومن لا يعرف الالام لا يمكن ان يدرك معنى الحنان والشفقة لان قلبه اصم ولهذا خلق الله جلت حكمته : الظلمة والضياء ، والصحة والمرض ، والجوع والشبع ، والجهل والعلم ، الى اخر تلك المتناقضات ، وبضدها تتميز الاشياء ومن عرف الشر توقاه ، فقد قيل :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه

فمن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

ولنعلمه منذ نعومة اظفاره الاستعانة بالله تعالى والايمان المطلق بعظيم قدرته ووسيلتنا الى ذلك حثه على الصلاة ، والبذل مما يملك (ولو من نفقته الخاصة) (٧٩) في معاونة الاخرين ممن هم في مثل سنه ، ولو لاحظنا الاطفال اثناء لعبهم جماعة لوجدنا من بينهم من يسرع الى مساعدة طفل اخر كبا (اي وقع على الارض) كما نلاحظ ايضا ان بعضهم يمسك بقطعة من الحلوى ، فاذا نظر اليه طفل آخر واشار الى الحلوى وبكى او ابدى حركة مناسبة مد اليه يده بقطعة منها وربما بعد ان توجهه امه الى ذلك قائلة : (اعط اخاك) فمن نمى فيه هذا الخلق خلق التعاون نشأ متعاونا ومن شب على شيء شاب عليه قال صالح بن عبد القدوس :

وان مـن ادبتـه في الصبا كالعود يسقي الماء في غرسه

حتـى تـراه مورقا اخضـرا بعد الذي ابصرت من يبسه

ولدى ادراكه واقتراب بلوغه اشده نوجهه الى ان يفهم ويدرك ان الحياة الدنيا لها اجل محدود ضاربين له الامثال بما يقـع تحـت سمعـه

---

(٧٩) مايسمى عرفا (المصروف اليومي أو مصروف الجيب).

وبصره (٨٠) ، وأن بعدها حياة أخرى ، فالموت ليس فناء مطلقا ، وانما هو مرحلة تعقبها مرحلة فيها الثواب والعقاب ، وللوصول الى فهم هذه الاحوال طرق متعددة في غاية اليسر متى كان الوالدان ومن يتولى التربية مؤمنا مقتنعا بما يقول عن يقين ، ولهذا أؤكد وجوب ابعاد الملحدين عن الناشئين .

والدليل على قوة المنهج الاسلامي وشدة فعاليته ويسر دراسة مراحله وتأكيدا لنتائجه الطيبة البعيدة الاثر في حياة الابناء نذكر بعض مواده الاصيلة كما وردت في الذكر الحكيم . قال تعالى : « ان الانسان خلق هلوعا . اذا مسه الشر جزوعا . واذا مسه الخير منوعا . » (٨١) هذا تحليل دقيق لوضع الانسان عامة حيال ما يصادفه في هذه الحياة . فهو في أصل تكوينه لا يستطيع الصبر طويلا على لأواء الحوادث وهي ملاقيته لا محالة يشكو ويتألم ويجزع ولا يحبس نفسه على المكاره التي تصقل طبعه ، يتقلب في فراشه الما ، ويتلوى كالثعبان في يقظته محاولا الفرار مما الم به ويمد يده لاول مبادر لانتشاله من بحار همومه ، فاذا استجيب له فصح واغتنى وعلم ، بطر وانقلب الى النقيض مما كان فيه كأن لم يصبه شيء وربما يعض اليد التي امتدت اليه ، ويعتدي على من أعانه في محنته ، ومن يحكي عنه هذه الخصال انه ربه بارئه من عدم خالق جزئياته المادية والروحية ، العالم بخلجات نفسه : قال الله تعالى : « واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون» (٨٢) هذا هو الداء فما علاجه ؟ تأمل علاجه في الدواء الذي صنعه عالم السر واخفى ، فهذا الانسان القليل الصبر ، الشديد الحرص ، الكثير انشكاة اذا اصابه مرض أو فقر أو غيرهما من أنواع الابتلاء ، العظيم الشح بماله اذا ملك ، البطر اذا اغتنى ، الجبار اذا صح ، وضح الله له الشفاء من أدوائه تلك في الصلاة وما يتلوها من أعمال وردت في قول الله تبارك وتعالى : « الا المصلين الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم والذين يصدقون بيوم الدين . والذين هم من عذاب ربهم مشفقون . ان عذاب ربهم غير مأمون . والذين لفروجهم حافظون . الا على

---

(٨٠) مما اشرنا اليه في مفتتح البحث: أن علماء العلوم التربوية غير المسلمين لا يلقون بالا لأحوال الى الآخرة وانما همهم أن يبين للطفل الطريق السوى للسير على هدى في في هذه الحياة وحسب، وهذا تقصير غير مقبول لان المؤمن بالبعث يخاف الله فيعمل الصالحات في دنياه وبالتالي تثمر فيه التوجيهات التربوية..

(٨١) الآيات من سورة المعارج رقم ٢٠، ٢١، ٢٢.

(٨٢) الآية من سورة يونس رقم ١٢.

ازواجهم او ما ملكت ايمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم بشهاداتهم قائمون . والذين هم على صلاتهم يحافظون . أولئك في جنات مكرمون » .(٨٣)

وذلك منهج للعلاج لو نفذ لاستقامت الامور ، وتوضيحه للناشئة وقلوبهم غضه لم يدنسها هوى او فساد هو أقوم طريق لضمان سيرهم عليه وتمسكهم به فيما يستقبلون من حياتهم .

وقـــديما قيـــل :

اتاني هواها قبل ان اعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

ونقاط مواده التي جمعت أصول الخير هي :

١ ــ الصـــلاة : ــ وهي دعاء وتضرع الى الله تعالى ، وأداؤها في جماعة يوثق الروابط الاجتماعية بين المسلمين ، فالذي يلاقي اخاه خمس مرات في اليوم والليلة لا يمكن أن يعمل ما يضره ، كما انه لا ينساه بحال ، فيعينه عند الحاجة ويواسيه في الشدة ويعوده في المرض ويلاقيه بالبشر وتلك صدقة ولهذا اشترط القرآن الدوام عليها (الذين هم على صلاتهم دائمون) وبدوامها يدوم التواد ويقضي على الخصومات ، وتخلص المجتمعـــات من مشـاكـــل كثـــيرة .

٢ ــ الايمان اليقيني الجازم بانبعث والحساب : وهذا يحمل على الالتزام بطاعة الله وتنفيذ اوامره فمن ايقن انه مسئول غدا عن تصرفاته اليومية حاول جاهدا احسان ما يقوم به من اعمال ، فقد قيل : (من أمن العقوبة أساء الادب) والمصدق بيو م الحساب لا يأمن العقوبة ، فمن نوقش الحساب عذب ، ولهذا يسير في حياته في حدود ما يقربه من الجنة ويبعده عن النار ، وينعكس هذا على سلوكه فلا يصدر منه الا الخير .

٣ ــ البذل والعطاء : وذلك يفتح القلوب المغلقة ويقرب النفوس المتباعدة ويقوي حبال المودة وقد قيل :

احسن الى الناس تستبعد قلوبهم فطالما استبعد الانسان احسان

والاحسان ماديا بالعطاء ، ومعنويا بالمواساة في البأساء والضراء ،

---

(٨٣) الآيات الكريمة من ٢٢ الى ٣٥ من سورة المعارج.

دون نظر الى جنس او لون او دين ، فقد اعفى عمر رضي الله عنه يهوديا تقدمت به السن وعجز عن الكسب من انضرائب ، واوجب له نفقة تكفيه من بيت مال المسلمين .

٤ ــ مراعاة العهود والمواثيق : سواء كانت بين الله والناس او بين الناس بعضهم بعضا فهذا ينشر الثقة بينهم ، ويزيد في اطمئنان احدهم الى الاخر ، والامانات واداؤها حق من حقوق الله والناس امر الله بادائها في قوله جل وعلا : « ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات الى أهلها ... » (٨٤)

٥ ــ حفظ الفروج عن الحرام : ولذلك اهميته منذ بدء الخليقة فالاعراض والخوض فيها يثير الحساسية الشديدة فما بالك بانتهاكها ، وحساسيتها آتية من ارتباطها بالذرية والانساب فلا يتحمل انسان متزن ان ينتسب غير ولده اليه ، ففي الاثار الشريفة من انتسب الى غير ابيه فقد اشرك بالله سبحانه ؟ وحرم الله ذلك في قوله جل وعلا : (... وما جعل ادعياءكم ابناءكم ذلكم قولكم بأفواهكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . ادعوهم لابائهم هو اقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم ... » (٨٥) وهذا في اللقيط الدعي فما يجيء عن السفاح اشد بلاء واقسى وقعا على القلوب المؤمنة ، وربما ترتب على ذلك صراع وقتال .....

٦ ــ واخيرا خشية الله تعالى : والاشفاق من عذابه وكل ذلك يباعد بين الناشئة وبين ما يغضب الله والمحافظة على تنفيذ ما امر ينشىء جيلا صالحا ومجتمعا سعيدا متآلفا متحابا ....

ولا ارى توجيها افضل من هذا ، وايصال كل ذلك الى من تجاوز العاشرة من عمره ممكن بالصبر على تفهيمه ، والقدوة العملية في التنفيذ ، ولنضرب لذلك الامثال :

يعود الاب او الام مريضا ويرى الطفل ذلك ، ويعطيان فقيرا تحت سمع انولد وبصره ، ويطعمان جائعا ويكسوان عاريا ، ويداعبان يتيما ويرعيان معوقا ويصليان ويتبادلان العبارات الطيبة ويرفعان اكفهما بالدعاء ، ويلزم الاب اسرته في كل احوالها ولا يغادر احد الوالدين البيت في غير الاوقات اللازمة لاعمالهما ، ويلازمان صغارهما في سرائهم وضرائهم ويأويان الى فراشهم مبكرين ويستيقظان مبكرين ايضا ، وما اكثر الطرق الموصلة الى

---

(٨٤) من الآية الكريمة رقم ٥٨ من سورة النساء.
(٨٥) من الآيتين الكريمتين رقم ٤،٥ من سورة الاحزاب.

افضل تنشئة واحسن تقويم لو ادرك الوالدان والمربون من بعدهم انهم مسئولون امام الله ولا مناص لهم من ذلك ، فهم مجازون احسن الجزاء على ما يبذلون من جهد وصبر وحزم وعناية لاولادهم عمد المستقبل واسس حضارته وحامل مشاعل كل تقدم وازدهار ، والابناء الصالحون هم الصلة الطيبة بين الوالدين بعد موتهم وبين الدنيا (او ولد صالح يدعو له) (٨٦) .

ومن المهم جدا في هذا الطور ان يحاط الطفل بالاصدقاء الاصحاء ، اخلاقا الاقوم سلوكا البعيدين عن مواطن الخنا والفساد ، فالاخلاق السيئة تعدي كما يعدي الصحيح الاجرب ، والاحاديث الشريفة في ذلك كثيرة يطول سردها ولنكتف بواحد منها متفق عليه : عن ابي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل الجليس الصالح والجليس السوء كمثل حامل مسك وكير الحداد ، فحامل المسك اما ان يحذيك (يعطيك بدون مقابل) واما ان تبتاع منه ، ونافخ الكير اما ان يحرق ثيابك واما ان تجد منه ريحا خبيثة » ... وعلى مؤدب الطفل ان يؤدب نفسه اولا ، وما اكثر الاثار التي تركها لنا السابقون الاولون في هذا المجال ، ففي كتاب : « العقد الفريد لابن عبد ربه » ج١ ص ٣٦٣ ما نصه : قال عمرو بن عتبة لمؤدب ولده : « ليكن اول اصلاحك لولدي اصلاحك لنفسك ، فان عيونهم معقودة بك ، الحسن عندهم ما صنعت ، والقبيح عندهم ما تركت ، علمهم كتاب الله ولا تملهم فيه فيهجروه ، روهم من الحديث اشرفه ، ومن الشعر اعفه ، ولا تنقلهم من علم الى علم حتى يتقنوه ، فان ازدحام الكلام في القلب مشغله ، وعلمهم سنن الحكماء ، ولا تتكل على عذر مني لك ، فقد اتكلت علىكفايةمنك» ومن وصية عبد الملك بن مروان لمؤدب ولده : « علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم السفلة فانهم اسوأ الناس ادبا ، واذا احتجت ان تتناولهم بأدب فليكن ذلك في مقر لا يعلم به احد من الحاشية فيهونوا عليه » ...

وفي الختام اعتقد ان نظرة الاسلام الى الطفل وعنايته به لا تساويها في كمالها وشمولها اية نظرة اخرى ، وما ذلك الا لان مصدرها العليم بأحوال عباده الخبير بما يصلحهم وما يسمو بهم ، واكاد اجزم ان كل من بحث في هذا المجال قد عرف الكثير من تاريخ الاسلام والمسلمين ، وطالع القرآن ، الكريم في لغته او عرف معانيه في ترجمته وتفهم سيرة رسول الله صلى

---

(٨٦) من حديث شريف رواه الامام مسلم نصه: (اذا مات ابن آدم انقطع عمله الا لامن ثلاث : صدقه جارية أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعوله).

الله عليه وسلم ، والبناة الاولين للامة الاسلامية ، ثم انطلق هؤلاء الباحثون الغرباء عن الاسلام يعلموننا حين غفلنا عن الارتشاف من منابعنا الثرارة أو اغفلناها تهاونا أو كسلا وضعفا وعجزا ، وانتظرنا الهداية في التربية والسلوك والاجتماع وسائر العلوم الانسانية من غيرنا ، وانكان غيرنا يحمل مصباحنا .

و يعشو الى ضوئنا، وأعتقد أن قادة الفكر المعاصر ين من رجال الاسلام من المر بين والباحثين فى التربية والاجتماع والعلوم النفسية... الى آخر ما هنا لك من العلوم الانسانية، أعتقد أن فيهم الخير الكثير والأمل معقود بهم وهم ليسو في حاجة الى دعوتهم الى مائدة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بل هم سادة عالمون وفيهم شيوخ الفكر والعقل في كل مجال من الرجال والنساء ومنهم ومنهن من قدم الكثير ولكنا نطلب المز يذ فالمنهو مان اللذان لايشبعان هما طالب العلم وطالب المال والعلم مقدم ومفضل على كل حال (ومن يؤمن بالله بهد قلبه) ولايغرب عن البال أن الكثير من رجالنا و باحثاتنا لهم نظرتنا في علوم مختلفة تدرس في أرقى الجامعات الأجنبية ولو زاد الجهد لنما الانتاج وكسونا غيرنا من نسيجنا، ومن سار على الدرب وصل - والله الموفق والمستعان.

المراجع

١ ـ القرآن الكر يم .
٢ ـ تفسير ابن جر ير الطبرى .
٣ ـ تفسير ابن كثير .
٤ ـ تفسير المراغى.
٥ ـ البحر المحيط (تفسير ابن حيان الأندلسى).
٦ ـ الحديث الشر يف.
٧ ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى.
٨ ـ عمدة القارى للعينى.
٩ ـ اميل القرن التاسع عشر ـ الفونس اسكار وس ـ مترجم عن الفرنسية.
١٠ ـ اميل وصوفى جان جاك ر ومو نسخة أصلية.
١١ ـ العقد الفر يد لابن عبد ر به.
١٢ ـ مراجع أخرى متفرقة .